

المقالة الخامسة^١ فى النسك والتعزىة الكثرىة والخشوع للمرىءن أن ىخلصوا

ىضرنى الوجع أن أتكلم وعدم الاستحقاق ىنهرنى كى أصمت والأوجاع تكلفنى أن أتكلم وخطاىاى تحضنى على السكوت .

فاذ قد اكتنفت من الأمرىن جمىعاً فالأوفق لى أن أتكلم لكى ما أنال الراحة من أوجاع قلبى لأن نفسى توجعنى وعىناى تشتهىان الدموع فمن يعطى لرأسى ماءً ولعىنى عىن دموع فأبكى نهاراً وللىلاً على كلوم نفسى وعلى رخاوة الموعظة الصائرة فى أىامنا .

لأن نفسى مملوءة جراحات ولا تعلم لأن تعظمها لا ىسمح لها أن تتأمل كلومها لتشفى لأن ذلك كان وحده عظة فى أىام أباننا .

لأنهم أشرقوا كالشمس وكالنجوم فى كافة الأرض سائرىن بها فى وسط القرطب والأشواك أى بىن الهرطقة والناس المنافقىن مثل جواهر كرىمة ولؤلؤ جزىل ثمنه .

الذىن من أجل مسكهم الجزىل وسىرتهم الصعبة صار الأعداء أنفسهم متشبهىن بهم ، لأن من كان ىشاهد تواضع رأىهم ولا ىتخشع ، أو وداعتهم وصمتهم فلا ىتحىر .

أى محب للمال كان يعانىن عدمهم للقرنىة ولا ىصىر مبغضاً للعالم ، أى متعطرس ومستكبر كان ىرى سىرتهم الحسنه ولا ىنتقل إلى التواضع .

وأى خبىث وذنس كان ىبصرهم فى الصلاة واقفىن ولا ىظهر فى الحىن عفىفاً وطاهراً ، وأى سخوط أو غضوب إذا كان ىخاطبهم فلا ىنتقل إلى الوداعة .

ههنا جاهدوا وهناك ابتهجوا لأن الله ىمجد بهم ، والناس ابتنوا وانتفعوا ، فأما العظة التى لنا فقد جعلتنا نترك الطرىق المستقىم ونعشق الهوى لأن لىس أحد ىترك الأموال من أجل الله ، ولا أحد ىزهد من أجل الحىة الأبدىة ، ولىس أحداً ودىعاً ومتواضعاً ، ولا ساكن الأخلاق ومبتعداً من السب أو صبوراً على القذف .

بل الجماعة سخوطون ومجاوبون ، والكل عاجزون وغضوبون ، ومتزىنون بالثىاب ، الكافة معجبون وللشرف محبون ، والجماعة محبون ذاتهم .

لأن الذى قد جاء لىو عظ فقبل أن ىعظ ىعظ ، أو قبل أن ىعظ ىعلم ، وقبل أن ىتعلم ىشترع فرائض ، وقبل أن ىتهجى فى الكتب ىصنع كتباً ، وقبل أن ىطبع ىرام أن ىطاع ، وقبل أن ىؤمر ىأمر ، وقبل أن ىعائب ىشترع العتاب .

إن كان شىخاً ىأمر بتأمر وتعظم ، وإن كان شاباً ىجاوب ، وإن كان موسراً للخىر ىطلب إكراماً ، وإن كان مسكىناً ىسأل عن الراحة ، وإن كان صانعاً ىنظف أصابعه وىصون تنزىدها .

من لا ىبكى یا أحبائى على التعلىم الذى لنا لأننا قد زهدنا فى العالم ونعقل المعقولات الأرضىة ، الفلاحون قد زهدوا فى الأرض والمظنون أنهم روحانىون قد ارتبطوا بها ، لا نعرف یا إخوتى إلى أىن قد دعىنا ، وإلى أى أمر جننا .

دعىنا إلى المسك والحمىة ونشتهى الأطمعة الطبىبة ، وجننا إلى العرى ونخاصم من أجل ثىاب ناعمة ، دعىنا إلى الطاعة والوداعة ونجاوب متتمرىن ، نقرأ ولا نعرف ، ونسمع ولا نعقل القول الذى فى ذاتنا .

^١ كتاب: مقالات مار إفرام ملفان الكنائس السورىة ومعلم الأرثوذكسىىن أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دىر السىدة العذراء البراموس فى برىة الأنبا مقارىوس
طبع سنة ١٨٩٢

إن صادف إنسان في الطريق بغتة قتيلاً تستحيل نضارة وجهه ، ويجزع قلبه ، ونحن نقرأ أخبار الرسل المقتولين والأنبياء المرجومين ونظنها قيلت عبثاً .

ولم أقول عن الأنبياء والرسل فقط بل نسمع عن الإله الكلمة نفسه عُلقَ على خشبة من أجل خطايانا وقُتِلَ ونحن نضحك و ننتزه ، الشمس لم تحتل شتيمة السيد فنقلت بهاءها إلى الظلمة ، ونحن لا نشاء أن ننقل من ظلمة رذيلتنا .

فلنظهر ذاتنا يا أحبائي ليسكن الإله فينا وننال مواعيده ، ولا نشتم اسمه القدوس الذي دعى علينا ، ولا يحدف من أجلنا على اسم إلها ، فلنشفق على ذاتنا متفهمين أن اسمنا قد أتفق مع اسم المسيح ، لأنه هو المسيح ونحن ندعى مسيحيين .

الروح هو الإله ونحن صرنا روحانيين ، لأنه حيث روح الرب فهناك الحرية ، فلنحرص أن ننال هذه الحرية ، ولنخطر بذهننا لأية سيرة قد أهلنا عالمين أنه إلى عرشه دعانا فلنحب ذاتنا ولو مثل ما أحبنا هو ، ولنشتاق إليه ليشرفنا .

اصغوا إلى ذاتكم لئلا نطالب بطائلة مضاعفة يوم الدينونة . قد انفصلنا من العالم ونعقل معقولات العالم ، استحققنا الأموال ونهتّم من أجلها ، هربنا من الأشياء البشرية ونحن نطلبها ، ونخشى من أن يدهمنا بغتة ذلك اليوم ونوجد عراه وأشقياء وغير مستعدين فتندم أنفسنا .

لأن هذا الأمر نفسه أصاب الذين كانوا على عهد نوح ، وفي أيامه كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون ، يبيعون ويبتاعون إلى أن جاء الطوفان فأهلك الكل .

إن الأمر يا إخوتي عجيبٌ جداً أنهم كانوا يعاينون الحيوانات البرية ملتئمة كانت تتقاطر جمعاً واحداً ، الفيلة كانت تتقاطر من بلاد الهند وفارس ؛ والأسد والنمور تجتمع مع الغنم والمعزى ولا تآزى .

والدواب والطيور تتوافى من غير أحد يسيرها وتحل حول السفينة بحرص وهذه كانت في أيام طويلة ونوح نفسه كان يعمل السفينة بحرص ، ويهتف إليهم توبوا فلم يرتدعوا .

وكانوا يشاهدون متعجبين من اجتماع البهائم والحيوانات البرية ، فلم يتخشعوا ليخلصوا . فلنرهب يا أحبائي لئلا يصيبنا نظير هذه لأن المكتومات قد كملت والعلامات المقولة لها انقضت ، وما تبقى شيء آخر سوى أمور عدونا معاند المسيح لأنه كما في مملكة الروم يجب أن تكمل الأشياء كلها .

فمن يشاء أن يخلص فليحرص أن يريد أن يدخل إلى الملك ، فلا يتوانى من يشاء أن ينجي من نار جهنم فليجاهد فرط الجهاد ، ومن يريد ألا يطرح في الدود الذي لا يرقد فليتيقظ مستيقظاً ، ومن يريد أن يستعلى فليتواضع ، ومن يشاء أن يتعزى فلينج .

ومن يحب أن يدخل الخدر ويبتهج فليأخذ مصباحاً بهياً وزيتاً في وعائه ، ومن ينتظر أن يتكئ في ذلك العرس فليقتن حلة منيرة . فإن مدينة الملك هي مملوءة سروراً وابتهاجاً ، موعبة نوراً وحلاوة نابعة لذة وحياة أبدية للساكين فيها .

فمن يحب أن يساكن الملك ، ويستوطن مدينته فليسرع لأن النهار قد مال ولا يعلم أحد ماذا يلتقى في الطريق ، لأنه مثل مسافر يعرف بُعد مسافة الطريق فأضجع ونام إلى قرب المساء ثم أنتبه وأبصر النهار قد مال .

فلما أبتدأ بالمشى تدارجته بغتة الغيوم والبرد والرعود والبرق محتفة بالهواء فاشتمله الغيوم من كل جهة ، وتضايقت حياته لأنه لا يستطيع الوصول إلى المنزل ولا يستطيع أن يعود إلى موضعه . هكذا يصيبنا نحن إن توانينا واضطجعنا في أوان التوبة لأننا نحن سكان وراحلون ، فلنحرص أن ندخل إلى مدينتنا وموطننا بعزاء .

نحن يا إخوتي تجار روحانيون طالبوا الجوهرة الجزيلة قيمتها التي هي المسيح مخلصنا ، الفخر والكنز الذي لا يُسلب فلنقتنه بحرص كثير فمغبوط ومثلث السعادة من قد حرص أن يقتنيه ، شقي من توانى أن يقتنى صانع الكل .

أو لا تعلمون يا إخوتي أننا أغصان الكرم الحقيقية التي هي المسيح . فأحذروا إذاً أن يوجد أحد غير مثمر ، فإن أب الحق هو الفلاح الذى يعمل هذه الكرمة ، والذين يعطون ثمراً يظهرهم ليأتوا بثمر ؛ والذين لا يأتون بثمر يقطعهم ويرميهم خارج الكرم ليحرقوا بالنار .

فتأملوا ذاتكم حذرين أن توجدوا غير مثمرين فتقطعوا ، وتلقون فى النار ؛ فكذلك نحن بذار جيد زرعه المسيح سيد المنزل صانع السماء والأرض ، وأوان الحصاد قد حان والحصادون بأيديهم المناجل منتظرين إشارة السيد ، فاحظروا أن يوجد أحدكم زواناً فيُشَد حزمناً ويحرق بالنار الدهرية .

ألا تتفهمون يا إخوتي أننا مزعمون أن نعبّر لجة مرهبة . فالذين هم تجار حاذقون وحكماء مستعدون ، وتجارتهُم بأيديهم منتظرون هبوب الرياح ليسيروا ويبلغوا إلى ميناء الحياة ، وأنا ومن يشابهنى تنتزه بلا كسب ولا فائدة .

ليس لنا شيء موضوع فى ذهننا لنعبّر به هذا البحر ونخشى أن تهب الرياح بغتة ، ونوجد غير مستعدين فيقيدوننا ويرموننا من المركب ، وسنبكى هناك على ونيتنا ناظرين إلى آخرين مبتهجين مسرورين ونحن فى وجع وحزن لأنه فى تلك الميناء يفتخر كل أحد بتجارته وثروته .

فأخشى يا أحبائى أن تخرجنا آلام الجسد خارج الحذر إذ نحن من خارج لابسين زياً لأن الذى من خارج يعرف أين هو قلبنا وعقلنا .

التزين وتنظيف الثياب يوضحان أننا مجردون من ذلك المجد مفتكرون فى الأشياء الأرضية ، وأثرة التشرف تدل أننا معجبون ، والتلذذ بالأطعمة يدل أننا شرهون البطن ، والونية توضح أننا عاجزون .

ومحبة الاقتناء توضح أننا لا نشتاق إلى المسيح ، والحسد يخبر أننا ليس لنا محبة فى ذاتنا ، وغسل أرجلنا ووجوهنا يدل على أننا عبيد الآلام ، لأن القلب يشتاق إلى شيء والأشياء التى يودها القلب يتلها اللسان ، وشفاهنا تستوضح مكتومات قلبنا .

متى أنفتح الفم ولا باب له ولا حراسة يخرج كلامنا بلا تحفظ ، وبأقوالنا نسلب متاع قلبنا لأن فماً لا يحفظ أسرار القلب يسترى أفكاره والرؤيات التى يظن أنها باطنة تشتت بالهم ، والنتائج التى يظن أنها لا ترى تبصر ، التلذذ بالمثالب يوضح أننا موعوبون بغضاً .

فلا يخدع أحد بالورع الظاهر فإنه يخدع ذاته وأخاه ، من يظن أنه يخدع بالورع الظاهر فتصرفه يظهر كذب ورعه .

إن شئت أن تعرف أفكار القلب فتقدم إلى الفم ؛ ومنه تعرف بأى شيء تهتم ؟ وعلى ماذا تحرص ؟ أعلى الأشياء الأرضية أو على المناقب السماوية . على الأمور الروحية أو على الأشياء البشرية . من أجل اللذة اهتمامك أو من أجل الحمية ، بهجر القنية تهتم أو باستكثارها ، بالتواضع أو باستعلاء الرأى ، بالمحبة أو بالبغضة ، لأن من كنز القلب يخرج الفم اهتماماته ، وهذيذ اللسان يوضح إلى ماذا يشتاق إلى المسيح أو إلى أمور العالم الحاضر .

والنفس التى لا ترى تبصر بأفعال الجسد ما هى إن كانت صالحة أو خبيثة لأنها صالحة بطبيعتها وتنتقل إلى الشر بالنية المتسلطة على ذاتها لكن لعل أحداً يقول إن الآلام الطبيعية والذين يعملونها لا جناح عليهم .

أصغ إلى ذاتك ولا تنسب حسن اختراع الإله الصالح إلى زلة الجنوح فإنه قد صنع البرايا كلها حسنة جداً وزين الطبيعة بسائر الصالحات ، فمن يجع إذاً لا يذنب إن أكل بمقدار لأن الجوع طبيعي ، وإذا عطش إنسان كذلك وشرب قدر كفافه فلا يخطئ لأن العطش طبيعي .

إذا نام أحد فلا يخطئ إن لم ينم بلا مقدار ويرخي ذاته ويدفعها إلى النوم ؛ حقاً أن النوم الذي لا مقدار له عادته تغلب الطبيعة لأن العادة والطبيعة هما كارزان بحظوظ كل واحد منهما بل فالطبيعة توضح العبودية، والعادة تشهر النية لأن منهما كليهما تتضح كيفية الإنسان .

فالنية هي مسلطة على ذاتها فهي مثل فلاح تطعم في ذاتها عادات رديئة وصالحة كما تشاء . أما العادات الرديئة فتطعمها هكذا تطعم في الجوع نهم البطن، وفي العطش كثرة الشرب وفي النوم الرخاوة وفي النظر الرؤية الرديئة وفي الحق الكذب .

وكذلك تطعم الفضائل الصالحة هكذا في الإغذاء المسك ، وفي العطش الصبر ، وفي النوم السهر ، وفي الكذب الحق ، وفي النظر التعفف ، وفي التأمل لحظة عين ، فهي مثل فلاح تقتلع العادات الرديئة وتطعم الفضائل الصالحة فتغلب الطبيعة .

فأرض عملنا هي الطبيعة ، والفلاح هي النية ؛ والكتب الإلهية هم المشيرون ، والمعلمون يعلمون فلاحنا أية عادات تطلع وأية فضائل صالحة تُنصب ؛ فما دام فلاحنا مستقيماً وحريصاً من قبل تعليم الكتب الإلهية فهو قوي لأنها تعطيه " الكتب الإلهية " من غصونها فهماً وقوة فضائل صالحة ليُطعم في شجرة الطبيعة .

الأمانة في عدم الأمانة ، ورجاء في عدم الرجاء ، ومحبة في البغض ، ومعرفة في عدم المعرفة ، وحرصاً في التواني ومجداً ومديحاً في عدم الشرف ، وعدم موت في الأمانة ، ولاهوتاً في الناسوت . فإن شاء وقتاً ما فلاحنا بتعظيمه أن يترك المعلم والمشير عليه أعني الكتب الإلهية ، يوجد تائهاً ويصادف نتائج خبيثة جامعاً عادات لا نفع فيها ويطعم في الطبيعة التطعيمات التي خارج الطبيعة .

أعني عدم الأمانة ، وجهالة ؛ وبغضاً ؛ وحسداً ؛ وكبرياء ، وسبح باطل ؛ وأثرة الشرف ؛ ونهم البطن ؛ وخصومة ؛ ومجاوبة ؛ وأشياء أخرى أكثر من هذا لأنه لما ترك المشرع ترك منه .

فإن تندم وعرف ذاته وسجد للمشرع الشريعة قائلاً : قد أخطأت إذ تركتك . يقبله المشرع السنة في الحين بتعطفه على الناس ويمنحه فقهاً واقتداراً صالحاً ليعمل أيضاً أرض فلاحته وطبيعته ، ويقتلع منها العادات الرديئة وينصب عوضها الفضائل الصالحة .

بل ويمنحه أكلةً ويعطيه جوائز ومدائح هكذا كما قلت ؛ أنه يجوع بالغريزة فيحتمي ويصبر ؛ ويعطش لكنه يصبر ؛ يشتهي لكنه يغيب ؛ يثقل بالنوم أو يشتمله عجز في تمجيد السيد ، لكنه إذا سهر يكلف نفسه في تسبيح الله . وكذلك يكلل إذا غلب الطبيعة وأقتني الفضائل .

فالمجد إذا لتعطفه والشكر لصلاحه ، والسجود لتحننه ، أي رب رؤوف هكذا ، أي أب رحوم هكذا ، أي أب هكذا يحب مثل سيدنا الذي أحبنا نحن عبيده ، ويهب لنا كل شيء ويدبر أمورنا ، ويشفي جراحات نفوسنا بكثرة صنوف الأدوية ؛ ويتمهل علينا إذا خالفناه .

ويشأن أن يخلصنا كلنا ، ويشأن أن يصيرنا وارثين ملكه ، ويريد أن تُمدح خيريته إذا شفت الأمراض السهلة الشفاء والحقيرة ، لأن الأسقام الثقيلة والصعب شفائها هو يشفيها !

فيشفي جراحات العاجز بنفخة فمه لدراسته بتمجيده ، ويصفح عن خطايا الخاطئ باستنهاضه إياه إلى النشاط ، ويسمع من السقيم سريعاً لئلا تصغر نفسه ، ويمنح الطويلة أناتهم والقارعين أبوابه دائماً الموهبتين كليهما أي الشفاء والثواب .

لأنه يقدر أن يشفي جراحات نفوسنا كلها وينقلها غصباً إلى الحرية لكنه لا يشأن لئلا تعدم نيتنا المدائح التي منه ، ونتوانى أن نستغيث به لمعونتنا ونصرتنا ، فلمحبته إيانا ورافته بنا قد اقتادنا وأنار أعين ذهننا منحنا المعرفة وأذاقنا محبته لنطلبه بلا تقصير .

الطوبى لمن ذاق محبته وأعد ذاته أن يمتلئ منها دائماً فإنه إذا امتلأ من مثل هذه المحبة لا يقبل في ذاته محبة أخرى ، يا أحبائي من لا يحب مثل هذا السيد من لا يسجد ويشكر لصلاحه .

أي اعتذار لنا في يوم الدينونة إن توانينا ؟ أم ماذا نقول له ؟ أنقول ما سمعنا وما عرفنا ! أو ما عملنا ! ماذا ينبغي أن يعمل ولم يعمل بنا ؟

ألم ينحدر إلينا من العلو الذي لا يُقَدَّر ! وألم ينزل من حضن الأب المبارك ! أما شوهده الغير المرئي منا ، وإذ هو غير مائت ألم يتجسد من أجلنا أو ما لطم ليعتقنا .

يا للعجب الموعب خوفاً ورعباً أن يداً طبيعية خُلقت من طين الأرض لطمت خالق السماء والأرض ، ونحن الأشقياء والأدنياء ترابيون ومانتون ورماد ولم نحتمل كلمة بعضنا من بعض .

هو غير مائت ؛ ألم يميت من أجلنا ليحينا ، أو لم يُدفن لينهضنا معه ، فكنا من رباطات العدو وربطه ، وأعطانا سلطاناً أن ندوسه ، متى استغثنا به ولم يجيبنا ، أو قرعنا بابه ولم يفتح لنا وإن تباطأ وقتاً ما أليس ذلك ليكثر ثوابنا .

أيها الحبيب لِمَ زهدت في العالم ؛ ألكي تطلب نياحة جسدانية ، وبدل العرى أتبتغي حلة ، و عوض العطش أتبتغي شرب الخمر .

دعيت إلى المحاربة ؛ وتروم أن تتقابل مع أعدائك بدون أسلحة ، عوض السهر تنحدر إلى النوم ، و عوض البكاء والنحيب تبذل ذاتك للضحك ، وبدل المحبة تحوي بغضاً لصاحبك .

جئت إلى الطاعة وأنت تجاوب ، جئت لثرت ملكاً وأنت تعقل المعقولات الأرضية ، و عوض التواضع والوداعة تشتمل بالتعظم والتكبر .

ماذا تقول له في ذلك اليوم ؟ أتقول أنني تواضعت من أجلك ! وتمسكنت وتعريت ، وجعت وعطشت من أجل محبتك من كل نفسي ، وأحببت قريبي كنفسي .

لا تستهجل أن أقوالك وأفكارك ليست غير مكتومة ، وضميرك هو الناظر إياك ، إن كذبت لا تجهل أنه لا يوبخك ، أو لا تعلم أن البرية كلها تقف أمام مجلسه بخوف ورعب شديد وتحوط به ألوف ألوف وربوات ملائكة رؤساء ملائكة ؟

وإن كنت تفنكر أن تكذب وتقول قد احتملت من أجلك مثل جسامة هذه الأشياء ، أهدر أن تبدى طائفة كبيرة عن أعمالك الخبيثة وعن كذبك فق من نومك وعد إلى ذاتك ، أجمع أفكارك وأنظر أن النهار قد مال .

أفهم هذا المعنى أيها الأخ ، إن إخواننا الذين كانوا معنا بالأمس يكلمونا ليسوا معنا اليوم لأنهم دعوا إلى ربهم وربنا ليريه كل واحد منهم تجارته .

ها أنتم قد عرفتم أمور أمس الماضي وأمور اليوم ، كيف مضي أمس كزهرة صباحية واليوم هو كفى مسائي ، فتأمل أمتعة تجارتك إن كانت قد نمت فائدتها من أجل الله ، لأن أيامنا تجوز مثل مشي ساعي .

الطوبى لمن يتجر وينمي بضاعته يوماً فيوماً ، ويجمع فوائد الحياة الدائمة. لِمَ تتوانى أيها الحبيب ، لِمَ تضجع وقد سكرت بالضجر كسكرك من النبيذ ، ماذا تميز في ذاتك إنك تجعل لك منزلاً في هذا الدهر .

لأنه مثل اثنين مسافرين أتفق أحدهما مع الآخر في الطريق ، وكل واحد منهما ذاهب إلى منزله فلما أدركهما كلهما المساء نزلا في الفندق الذي بلغا إليه ، ولما صارت الغداة فارق أحدهما الآخر ، وكل واحد منهما يعرف ما له في منزله إما غنى وإما فقيراً ، إما نياحة إما حزناً .

هكذا نحن في هذا العالم فإن هذا العمر يضاهي مسكناً ومنه نفترق ذاهبين إلى موضعنا عالمين ما لنا أمامنا لأن كل واحد منا لا يجهل ما تقدم فأنفذ إلى السماء .

كما أقول إن كان أرسل صلاة بدموع ، أو سهرراً نقياً ، أو ترتيلاً ، أو تخشعاً ، أو مسكناً بتواضع الرأي ، أو زهداً في الأمور الأرضية أو محبة بلا رياء تتوقان إلى المسيح .

إن كنت سبقت فأرسلت هذه فتق إنك ستمضي إلى نياحة وراحة ، وإن كنت ما أرسلت ولا واحدة من هذه فلم تغيب قريبيك في مسكن الاغتراب لأنك غداً تقارقه ، لِمَ تتكبر ، لِمَ تتعظم ، لِمَ تحزن .

أتريد أن تحمل المسكن معك ، لِمَ تهتم من أجل ثياب وملابس وطعام فالمعطي البهائم غذائها ألا يغذيك أنت الذي تمجده .

يا من ترجوا أن تصير وارثاً أنهتم بثياب وملابس ، يا من قد أمت ذاتك من العالم أتعمل المعقولات الأرضية ، لم تغيب الطبيب بأنك تريد أن تبرأ وفي زمان مداواتك تخفي جراحاتك ؛ وتدعى على الطبيب أنه ما أبرئك .

قد أعطيت وقتاً للتوبة ، وأنت تتواني في التوبة . فماذا تدعى على المشتري السنة أنه أجتلب الموت لما تهونت ؛ أترك تقول للموت دعني أتوب .

فق أيها الحبيب متيقظاً فإن تلك الساعة كالفخ تأتي إليك وحينئذ يشتمل ذهنك ذهول ، وتقول : كيف جازت أوقاتي ؟ وكيف عبرت أيامي في حال تنزهى في الأفكار الغير واجبة ؟ وما المنفعة أن تفكر بهذه وقت الموت ، ولا يسمح لك أن تعود إلى هذا الدهر منذ الآن ضع عقلك في المقولات وليدخل في مسامعك أقوال الرب ، إن كنت تصدقه لأنه هو قال إنك تعطي في ذلك اليوم جواباً عن كل كلمة بطالة .

يخزيننا هذا الفصل إن كان ذهننا مستيقظاً ؛ فالذي يتفهم المكتومات ولا يسمع المقولات فهو يضاهي كوز مياه يقبل الماء ولا يحس إنه يجوز فيه .

ترى من لا يبكي ، ومن لا يرى ، ومن لا يحزن ، ومن لا يندهل ، إن سيد الدنيا كلها يهتف بذاته ، وبعبيده الرسل والأنبياء ، ويكرز صارخاً وليس من يسمع .

وما هي الأشياء التي أشار إليها ؟ العرس معد قال والمسمنات قد ذبحت والختن جالس بعظم جلاله ومجده في الحجة يستقبل المقبلين إليه بفرح .

الباب قد فتح ، الخدام متسارعون ، فأعدوا قبل أن يُغلق الباب لئلا تبقوا خارجاً ولن يوجد من يدخلكم ، ومع ذلك لا يحترس أحد بل يضع ويهتم بهذا الدهر ، فالكتب الإلهية نكتبها خطأ مستويماً إلا أننا لا نشاء أن نكمل الأوامر التي فيها .

ترى من هو الذي يسافر بلا زاد في طريق بعبيده كما نشاء نحن أن نترك زادنا ههنا ولا نأخذ معنا شيئاً للسفر ، فمغبوط من يسافر للرب بدالة حاملاً زاده بلا احتياج إلى غيره .

فها العشر عواتق نائمات والعبيد يتجرون وينتظرون سيدهم عالمين أنه قد أخذ الملك وهو آتي باقتدار ومجد جزيل فيكلل عبده الذين تاجروا حسناً بالفضة التي قبضوها منه ، ويقتل أعدائه الذين لم يريدوا أن يملك عليهم .

أنه في النوم الذي يشتمل طبيعة الناس في نصف الليل يصير من السماء بغثة دوي عظيم وعود مرهبة ، وبروق مفزعه مع زلزلة .

يذهل بغثة الراقدون ، ويذكر كل أحد أعماله التي عملها إن كانت صالحة أو طالحة .

ويقرعون صدورهم صائحين على مضاجعهم لأنهم ليس لهم موضع يهربون إليه أو يختفون فيه ، أو يندمون على ما عملوا ، لأن الأرض تتزلزل ، والرعود ترعب والبروق تُذهل ، وظلمة عميقة تطوف بهم .

هكذا تكون تلك الساعة تزعج الأرض كلها كبرق حاد مدلهم لأن الصور يبوق بخوف من السماء وينهض الراقدون وينتبه الهاجعون منذ الدهر لأن هذه السماوات مع كافة قوتها تضطرب والأرض تنموج كلها كالبحر مرتعدة من اتجاه مجده .

لأن ناراً مرهبة تتقدم سعيها أمامه تنظف الأرض من الآثام التي دنستها ويفتح الجحيم أبوابه الدهرية ، ويبطل الموت وتراب الطبيعة البشرية المتناسي إذا سمع صوت البوق يعيش ويحيا لأنه بالحقيقة يكون ذلك عجباً .

يرى مستعجباً كيف بطرفة عين ، كما أن السمك الكثير الذي يذهب ويجيء ويتقلب في البحر ، هكذا كثرة عظام الطبيعة البشرية التي لا تحصى ينزع كل واحد منها طالباً مفصله ، وإذا نهضت تحاضر كلها وتقول :

المجد لمن جمعنا واستنهضنا بتعطفه على الناس . وحينئذ يبتهج الصديقون ويُسر الأبرار ،
والنساك الكاملون يتعزون من تعب نسكهم ، والشهداء والرسل والأنبياء يكللون .
الطوبى لمن أستحق أن يرى تلك الساعة كيف بمجد يخطف في السحب لاستقبال الختن الذي لا
يموت ؛ وكافة الذين أحبوه وحرصوا أن يتموا مشيئته ، كما قد عظم كل واحد جناحه وهنا هكذا يطير
إلى شواهد الأعالى ، بمقدار ما نظف كل واحد ذهنه وصفاه هكذا يبصر مجد الله .
وبقدر ما أشتاق الإنسان إليه هكذا يتملى شعباً من محبته ، ويتعجب في تلك الساعة آدم الأول إذا
أبصر العظام والمرهوبات .

كيف قد حضر منه ومن قرينته ما لا يحصى من كثرة الأجناس ، وإذا تكاثر تعجبه لكونه من
طبيعة واحدة وخليقة واحدة صاروا في الفردوس وفي الجحيم متواترين بمجد الإله الخالق ، والمجد
للحكيم وحده .

يا أحبائي لقد تذكرت تلك الساعة وارتعدت ، وتأمّلت تلك الدينونة المفزعة فاندھلت ، وذلك
السرور الذي في الفردوس فتنهدت وبكيت حتى لم يبقى فيّ قوة لأبكي أيضاً ، لأن أيامي عبرت في
التواني والتنزه . وفي الأفكار النجسة أكملت سنين حياتي .

كيف سرقت ولم أعلم ؟ وكيف عبرت ولم أحس ؟ فأيامي فنيت وآثامي تكاثرت ، ويلي ويلي يا
أحبائي ماذا اصنع بخزي تلك الساعة إذا طاف حولي الذين يعرفوني ، والذين لما أبصروني في هذا
الزبي طوبوني وأنا من داخل مملوء إثمًا ونجاسة ، متناسي الرب فاحص القلوب والكلى .
بالحقيقة أن هناك الخزي والافتضاح ، والشقي هو الذي يخزي هناك . أيها الصالح العطوف
أستحلفك برأفتك ألا توقني على اليسار مع الجداء التي أغاظتك ، ولا تقل لي لست أعرفك ، بل
أعطيني بحنانك بكاءً دائماً وتخشعاً ، وأعطي قلبي تواضعاً وطهره ليصير هيكلًا لنعمتك المقدسة
لأنني وإن كنت خاطئاً ومناقفاً لكنني قارِعاً بابك بمداومة ، وإن كنت عاجزاً ووانياً لكنني في طرقك
سالماً .

يا إخوتي الأحباء أتضرع إلى ألفتكم أن تجزموا على أن ترضوا الله ما دام موجوداً ، أبكوا قدامه
نهاراً وليلاً في صلواتكم وترنيمكم لينقذكم من ذلك البكاء الذي لا ينقضي ، ومن تقعع الأسنان، ومن
نار جهنم ، ومن الدود الذي لا يرقد ، ويفرحكم في مملكته في الحياة الخالدة حيث يهرب الوجد
والحزن والتنهد .

حيث لا يحتاج أحد دموعاً ولا توبة حيث لا مخافة ولا رعدة ، حيث لا فرق ولا تفاضل ، حيث لا
يوجد المحارب والمعاند ، حيث لا خصومة ولا سخط ، حيث لا بغض ومعاداة .
ولكن ذلك كله مملوء فرحاً وسروراً وابتهاجاً ومائدة مملوءة أطعمة روحانية أعدها الله للذين
يحبونه ، فمغبوط من يؤهل لها ، وشقي من يعدمها .

فأطلب إليكم يا أحبائي أن تسكبوا علىّ تحننكم ، وتشفعوا عني ساجدين لابن الله الوحيد الصالح
العطوف ليصنع معي رحمة وينجيني من غزارة مآثمي ويسكنني حول مساكنكم في ساحات الفردوس
المبارك الوارثين إياه حتى أصير جاركم .

لأنكم أنتم الأولاد المحبوبون وأنا كالكلب المرفوض ، انفضوا لي فتات موائدكم فيتم علىّ الفصل
المكتوب : " والكلاب تشبع من فتات المائدة المتساقط " .

نعم يا أحبائي اسكبوا علىّ صلواتكم ، وهلموا أن نحرص من أجل حياتنا فإن الأشياء كلها تعبر
كعبور الظل ، ولنبيغض العالم والأشياء التي في العالم والاهتمام البشري ، ولا نتخذهما آخر سوى
الاهتمام بخلصنا كما قال ربنا :

" ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ أو ماذا يعطي الإنسان فدية عن نفسه " .
أيها الإخوة نحن تجار روحانيون فلنتشبه بالتجار العالميين ، فالتاجر يحسب كل يوم ربحه
وخسارته ، فإن خسر يحرص ويهتم كيف تُرد خسارته .

كذلك أنت أيها الحبيب في كل صباح ومساء وغدوه تأمل بمبالغة كيف تتجر تجارتك ، وفي كل عشية أدخل إلى قلبك ، وتفكر وقل في ذاتك أتراني أغضبت الله في شيء ؛ أو تكلمت كلمة بطالة أو جدفت .

أتراني أغضبت أخي ، أو اغتبت أحداً ؛ أتراني تخيل ذهني الأمور التي في العالم ، أم ترى جاءت إلى شهوة بشرية فقبلتها بتلذذ وانغلبت للهموم الأرضية أم خسرت في هذه الدنيا . فأحرص أن تترك هذه التأملات تهذا بك لنلا تخسر في هذه ، وإذا صار الصباح أدرس في هذا وقل ترى كيف عبرت هذه الليلة أربحت فيها تجارتي أترى سهر عقلي مع جسمي ، أدمعت عينايا دموعاً في إحناء ركبتي ، أو جاءت إلي أفكار خبيثة ودرستها بتلذذ . فإن إنغلبت في هذه فأحرص أن تشفيها ، وأقم حافظاً في قلبك لنلا تصاب بهذه نفسها . إن اهتممت هكذا فستسلم تجارتك وتصير مرضياً لله ، ولنفسك نافعاً . اصغ إلى ذاتك وأحذر أن تدفع ذاتك إلى الونية والرقاد فإن ابتداء الهلاك تمرد النية . تأمل النحلة وابصر سرها العجيب كيف تجمع صناعتها من أزهار الأرض المشتتة أنواعها وتأمل ذميم قدرها فإنه لو اجتمع كافة حكماء الأرض وفلاسفة المسكونة لما قدروا أن يخلصوا ويصفوا حكمتها .

إن كيف تبني من الأزهار القبور وتدفن فيها أولادها وإذا أحييتها تأمرها بعد ذلك مثل أمر رئيس القواد وتسمع كلها صوتها وتتطاير فإذا تطايرت تعمل وتملا تلك القبور أطعمة حلاوتها حتى أن كل فقيه يشاهد أتعابها يمجّد الإله الباري منذهاً قائلاً : يا لحكمة وهبت لطائر ذميم . كذلك أنت يا حبيبي صر مثل تلك وأجمع من الكتب الإلهية غنى وكنزاً لا يسلب إلى السماوات ؛ لأن رؤساء الأرض إذا أراد أحدهم أن يسافر إلى بلدة بعيدة يرسل قدامه غلماناً مع ثروته لكي يوافي إلى راحة معدة فيرتاح .

كذلك أنت أيها الحبيب أرسل غناءك إلى السماء لتقبل في مساكن القديسين ، ولا تتوانى في هذا الزمان القصير لنلا تندم إلى الدهور التي لا انقضاء لها . ألم تسمع الرب يقول : سيكون لكم في العالم حزن . وقال أيضاً : بصبركم تملكون أنفسكم .

فإن كنت أنت برخاوتك وونيتك تشتاق أن تهرب من حزن هذا الدهر ومن الصبر وتحب اللذة البشرية فلم تسلب نير المسيح الصالح النفيس من أجل رخاوتك وتهجوا بأنه صعبٌ وثقيلٌ ، ولا يمكن أن يُحمل ، وتعطي ذاتك للهلاك .

من ذا يرحمك وأنت تقتل نفسك ، ومن يترأف عليك ، لأنك قد أخذت أسلحة المسيح التي تحتاج أن تحارب بها العدو فأنفذت السيف في قلبك ، فإن كنت تتباهى بهذه الحياة فرجاؤك باطل ، وانتظارك فارغ .

ماذا يصلي فمك إلى الله ؟ وما هي الوسيلة التي تطلبها منه ؟ أنياحة هذا الدهر ، أو الحياة التي لا تقنى ولا تشيخ .

إن طلبت هذه الأشياء الوقتية والغير ثابتة فإن السارق والزاني أفضل منك ؛ لأنهما يصليان ليخلصا ويطوباك لأنك سائر بهذه السيرة بكذب ، وأنت قلت أحببت النور وأبغضت الظلمة وتركت ملكوت السماوات وتهتم بالأمور الأرضية .

أحسبت يا شقي أن الإله الصالح المتعطف ينكر تعبك ، وهو الذي منحك قوة ونعمة وخشوع قلبك وهو يعطيك ثوابك ، والأشياء كلها منه وأنت تتعظم ، وهو يطالب بأجرة الأجير من الذين ينكرونها عليه .

أفينكر أجرة دموعك ، وخشوعك ! حاشا لأن الذي قال : اطلبوا تجدوا ؛ اقرعوا يفتح لكم . أيصير كاذباً حاشا ، أذهب يا شقي من الذي حسدك ، من الذي مكر عليك . أليس هو المعاند المبغض الخبيث الذي يحرص ألا يجعل أحداً يبلغ إلى السماوات .

فمنذ الآن عد إلى ذاتك ، ولا تمقت نفسك ، أفتح عيني ذهنك وأبصر الذين معك كيف يجاهدون ، كيف يحرصون وهم ماسكون مصابيحهم ، وفهم يسبح ويمجد الختن الذي لا يموت ، وأعينهم تتأمل جماله ، وأنفسهم نضرة بهجة .

تأمل أنه قد قرب ولا يبطن ، لأنه سيجيء ويفرح الذين ينتظرونه ، سيصير بغتة صوت ها هو الختن أت فيجئ الذين معك بفرح ومصابيحهم معهم مضبئة ، وحلهم منيرة فإذا سمعوا صوته القائل : " تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم من قبل إنشاء العالم " .

فبعد أن يصير الصوت تقول لهم : يا إخوتي هبوا لي زيتاً قليلاً لأن مصباحي ها هو ينطفئ . فتسمع منهم لعله لا يكفي لنا ولك ، أمضي إلى الباعة واشتري ، فتمضي متندماً ومغموماً ولا تجد لبتة زيتاً لتبتاعه ، لأن الأرض كلها ترتعد كما يتموج ماء البحر من تجاه مجده . فنقول حينئذ منتحياً أمضي وأقرع ومن يعلم إن كان يفتح لي ، فإذا مضيت لتقرع لا تجد أحداً يجاوبك .

فتلثت تقرع أيضاً ، فيجاوبك من داخل قائلاً : حقاً أقول لك أنني لست أعرفك من أنت أنصرف عني يا عامل الإثم .

وفي حال وقوفك هناك يأتي إلى أذنك صوت السرور والابتهاج ، وتعرف صوت كل واحد من رفقاتك ، فتنتهد وتقول : ويلي ويلي أنا الشقي كيف عدمت هذا المجد الذي لإخوتي وأنتزعت من رفقتي الذين كنت طول زمان حياتي معهم والآن ميزت منهم .

أصابني هذا بواجب لأن أولئك كانوا يمسون ويحتمون ، وأنا كنت أجدف ؛ أولئك كانوا يرتلون ، وأنا كنت أتفرج صامتاً ؛ أولئك كانوا يحرصون في إحناء الركب ، وأنا نائم ، أولئك كانوا يصلون ، وأنا أنتزه . أولئك كانوا يواضعون ذواتهم ، وأنا أتكبر أولئك كانوا يحتقرون ذواتهم ، وأنا أتزين . لهذا الآن أولئك يسرون ، وأنا أنتحب ؛ أولئك يبتهجون ، وأنا أبكي . فق إذا أيها الشقي قليلاً متأملاً محبة الله للناس التي لا تتجاوز نهايتها ، ولا تضع في خلاصك ، أطلبه فيصبح لك سريعاً خلاصاً ، وأستغث به فينصرك ، أعطيه لتأخذ مائة ضعف .

وإذا كان الصك الذي لا نفس له يهتف بما مكتوب فيه بتأدية الديون فكم أولى بالإله الصالح أكثر أن يعطي للذين يطلبونه نعمه المعهودة بالكتائب التي يتمنى أن تزداد رباءً على رباءٍ ؛ ونعمة الله الكثيرة تكثر أجرة صلواتنا وطلباتنا .

فلا تضجع ولا يطرأ عليك الاهتمام بالأمر الأرضية ؛ ولا تدفع ذاتك إلى اليأس ؛ فإن الله من أجل تحننه يقبلك وينصرك أنت وكافة الذين يبتغونه بكل قلوبهم .

فتقدم إليه بلا خجل ، وأسجد له بتنتهد ، أبكي وقل : " يا ربي ومخلصي لم تركنتني ترأف عليّ فانك أنت العطوف وحدك ، خلصني أنا الخاطيء فإنك أنت الغير خاطيء وحدك لتتشلني من حماة ماتمى لئلا أنغمس فيها إلى أبد الدهور .

أنقذني من فم العدو فإنه مثل سبع يزار مريداً أن يبتلعني ، أنهض قوتك وهلم لتخلصني ، أبرق ببرقك وشتت اقتداره لينذهل ويهرب من أمام وجهك لأنه ضعيف عن الوقوف أمامك ، وأمام وجه الذين يحبونك ، لأنه إذا رأى علامة نعمتك فيجزع منك ويتنحى عنهم خازياً فالآن أيها السيد أعني فإني إليك لجأت " .

إن ابتلعت إليه هكذا واستغثت به من كل قلبك للحين يرسل مثل أب صالح ومتحنن نعمته إلى معونتك ، ويكمل كافة مشيئتك .

يا حبيبي نعم تقدم ولا تضجع ، ولا تنظر إليّ أنا الواني المضجع لأنه يخزيني خزي وجهي إذ أقول ولا أعمل ، وأعظ ولا أفهم .

لكن صر مشابهاً للأبء الكاملين الروحانيين وأتبع رسمهم ، ولا تبتدئ بالأمر العالية جداً التي تفوق قدرتك ولا يمكنك أن تتممها ، ولا تبتدأ بالأفعال الحقيرة جداً ليكثر توانيك .
ولا تسمن جسدك لئلا يحاربك ، ولا تعود على اللذات البشرية لئلا يصير ثقلاً لنفسك ويحدرها إلى أسفل أعماق الأرض ؛ لأنك إن بذلت ذاتك لإكمال مشيئته فإنه سيرتك الطريق المستوية ويمشي في الهوة ، ويقبل بسهولة كل فكر نجس ، ولا يتعفف .
وإن ضيقت عليه فوق المقدر وألمته بصير ثقلاً لنفسك ويسودها ويشملها الكآبة والضجر .
وتصير سخوطة وعاجزة في دراسة التسبيح والصلاة والطاعة الشريفة ، فدبر ذاتك بمقدار جيد معتدل .

قل لي أما رأيت قط موقف السباق ؟ أو ما رأيت قط مركباً في البحر ؟ لأن الخيل إذا لهدها أحد بلا مقدار تخور من الجري ، وإن رجا لها بلا مقدار تمد الركب وتطرحة .
وكذلك المركب في اللجة إن أوسق فوق حد وسقه يمتلئ من الأمواج ، ويغرق وإن سبح مخففاً بلا وسق تقلبه الرياح سريعاً . نظير هذا المقياس النفس والجسد ، إن ثقلاً بلا مقدار بالأشياء المقدم ذكرها يسقطان ، فلماذا جيداً أن تبتدئ ، وتتم وترضي الله ، وتنتفع ذاتك وقريبك .
أنتم يا رعية المسيح المباركة ، ونجوم المسكونة ، وملح الأرض ، أيها النساك الكاملون والمحبون على الأرض السيرة الملائكية ، إن تعبك وقتي والمجازاة والمدائح أبدية ، وتعبك يسير والنياحة والكمال بلا هرم .

وبمقدار ما تجاهدون بنشاط في تقويم الفضيلة بقدر ذلك يشتغل عدوكم غيظاً ويخبئ لكم فخاخاً متلونة .

فأصغوا إذا لذاتكم حذرين من مكانه ، لأنه خلواً من جهاد لا يكمل أحد ، بل ونعمة الله لا تتخلى عن من يحارب ويجاهد بنشاط .

فإن أرخى أحد ذاته ، وعجز أن يفتح فمه ويستدعي النعمة لنصرته ليجعل العلة ذاته لا النعمة كأنه لم يعاين منها ، لأنه يكون مثل واحد يديه صحيحتين وأمامه كثرة أطعمة موضوعة فيعجز أن يمددها ويملاً ذاته من الخيرات المنصوبة لديه ، فمن ذاته تكون خيبته وخسارته .
هكذا العابد الذي له تجربة النعمة والخبرة بها فإذا توانى في الاستغاثة بها والتلمي من حلوة أطعمتها فهو يضر ذاته ولا يحس .

يشبه العابد جندياً برز إلى الحرب وقد دجج جسده من كل جهة بجملعة أسلحة وهو متيقظ إلى الغلبة ومجاهد لئلا يكسبه محاربه بغتة فإن وجد غير متحفظ فيأخذه ، كذلك العابد إن أضجع وتوانى يقتنصه عدوه بسهولة .

لأنه يخطر له أفكاراً نجسة فيقبلها بتلذذ ؛ أعني أفكار استعلاء الرأي والسبح الباطل والحسد والوقيعه ونهم البطن ، والنوم الذي لا يشبع منه ، ومن هذه يقوده إلى اليأس وأثرة المساوي .
وإن كان مستيقظاً كل حين متيقظاً يجذب نعمة الله لمعونته ويتخذها ويعلم كيف يرضيه ، فيصير في ذاته ممدوحاً ومادحاً ويكون مثل إنسان ينظر في مرآة فيرى ويرى .

كذلك النعمة أينما تجد راحة وتسكن في إنسان فتختبره وتختبر منه لأنه خلواً من معونتها لا يقدر القلب أن يكتفي بذاته ، ولا أن يمتلئ تخشعاً ، ولا أن يعترف للسيد كما ينبغي لكنه يبقى مسكيناً ومحتاجاً وفقيراً من الحسنات ؛ وتسكن فيه الأفكار النجسة والممقوتة كما يسكن البوم في الأماكن الخربة .

فإذا استدعاها " النعمة " إنسان لتجئ فتضئ ذهنه وتضطره ليقفنيها ساكنة معه ، ومعينة لذاته ، فيها يقوم كل فضيلة ، ويستضئ منها ، فيستطيع أن يتأمل تكون الدهر المستأنف وجمال صورته ، لأنها تصير له سوراً حصيناً ، وتحفظه من هذا الدهر لحياة الدهر الآتي .

أصغ إذاً مسامعك فأكن لك أيها الحبيب مشيراً صالحاً إن اشتهيت الحياة الخالدة ، وتطويب ربك ، قل لي لم تغسل وجهك بماء لترضي قريبك إنك ما نبذت آلام بشرتك بل أنت مستعبد لها ، إن أردت أن تغسل وجهك فأغسله بالدموع والبكاء ليشرق بمجد الله والملائكة القديسين .

لأن الوجه المغسول بالدموع هو جمال لا يضمّر لكن لعلك تقول لي : إن وسخ وجهك يخجلك . فأعلم إذاً أن وسخ رجلحك ووجهك مع نقاوة قلبك يلعب أكثر من الشمس بين يدي الله والقديسين . ولم تضحك بلا تحفظ ويسود عليك الضحك وقد أمرت أن تتوح ، من أين هذا ؟ لأنك لا تشفق إلى تطويب الرب ، ولا تخيفك تعاذيبه ، فالمجرب يستطيع أن يعظ غير المجربين ، والتاجر الذي سقط بين اللصوص يأمر المسافرين بالتحفظ والتحرز .

فإذ قد جربت أنا بجزء من التجربة أقول لفهمك لأنني تحررت قليلاً ، ومن أجل رخاوتي أوقعتني الونية في الأمر نفسه ، فلماذا أشير عليكم يا رعية المسيح الماثورة أن لا تعدموا من أجل الآم الجسد ولذة العالم مجد الله ، وتتغربوا من سرور الخدر الذي لا تبلى بهجته ، عالماً أن تعب النسك هو مثل نوم وارد ، ونياحة المكافأة هي لا تنقضي ، ولا تنعت .

فأصغ إلى ذاتك لئلا توجد واقعاً من الحظين كلاهما وتؤدي طائلة عنهما جميعاً ، لكن أحرص أن تقتني الفضيلة التامة الموشاة بكافة المناقب التي يحبها الله ؛ فإنك إن اقتنيتها فلا تغيظ الله قط ، ولا تعمل بقريبك سوءاً .

فهذه تدعى الفضيلة ذات النوع الواحد ، وهي حاوية في ذاتها جمالاً ، وتكون كافة الفضائل مثل تاج الملك ، وهذه قد تكون غير تامة ، وغير مختبرة إن كانت تنقص واحدة من المقومات المحصورة في الفضيلة .

وتضاهي نسرأ عظيماً طائراً في الأعالي فلما أبصر في الشرك طعاماً انحدر وأنقض عليه بسرعة فإذا رام أن يختطف الصيد تعلق بطرف مخلبه .

وبذلك العضو الصغير رُبطت كافة قوته ، وفيما هو يظن أن كافة جسمه معتوق وخارج من الشرك فيجد بالحقيقة أن قوته كلها قد قيدها الشرك .

والفضيلة مثل هذا القياس إن رُبطت بأحد الأمور الأرضية تموت وتنقسم وتهلك ولا يمكنها أن ترتقي إلى العلو إذ قد سمرت بأمر أرضي وتقيدت به .

فمن له دموع فليجئ وليبك ، ومن لا يمكنه التخشع إذا عبر فليتنهد على هذه الفضيلة أنها بعد أن ارتقت إلى السماء وبلغت إلى أبواب الملك أنفسها لم تقدر أن تدخل .

كما قلت أيها الحبيب أن قوماً قوموا هذه الفضيلة بربوات أتعاب وشوها مثل تاج الملك ؛ فلما ارتبطوا بأمر أرضي هلكوا ووقفوا خارج الملوك السماوي .

فصن ذاتك إذاً وأحذر أن تشتبك في شيء مثل هذا وتدفع ذاتك إلى العدو ، وتحل الفضيلة العجيبة التي اقتنيتها هكذا أو تنقضها بأتعاب مثل هذه جزيلة فتمنعها من الارتقاء إلى السماء ، وتقيمها أمام الخدر خازية ، لكن أعطيتها دالة أن تدخل بصوت عالٍ مبتهجة نائلة ثوابها .

يا للعجب إن سبع يُربط بشعره ويجول إلى هنا وهناك ، هكذا هذه الفضيلة إذا رُبطت باهتمام أرضي تتهرى إلى الأرض ويدل شرفها لأن هذه الفضيلة تُشبه بالسبع .

فق إذاً أيها الحبيب ؛ وحرك ذاتك ؛ وأقطع الشعرة الحقيمة كي لا يضحك عليك مثل ذلك القوي الذي قتل بالفك في لحظة عين أوفاً وحرر ذاته وقتل أعدائه ورد الظفر إلى الله ونقلت طلبته ذلك الفك عيناً نابعاً .

فذلك الذي قوم مثل هذه المناقب قدر جسامتها سلم نفسه بانتزاع شعره بسفاهته إلى الأعداء ، وقيد قوته المرهوبة والعجيبة جداً .

فأنت الآن أصغ إلى ذاتك ، ولا تربط مثل هذه الفضيلة بعمل ردىء ما أرضي بل حررها من كافة الأشياء الضارة وجهازها إلى السماء .

ومثل غواص يغوص في العمق ليجد الدرة الجزيل ثمنها والشائع ذكرها إذا وجدها يصعداها إلى أعلى المياه ، ويثبت على الأرض عارياً ومعه ثروة جزيلة .

كذلك جرد ذاتك من كل أدناس العالم ، وألبس هذه الفضيلة وتزين بها وتيقظ نهاراً وليلاً لنلا تتعري منها ، فإن النفس التي اقتنتها لا يمكن أن يحيلها شيء ولا واحد من الأسواء يغيرها ، لا من جوع تتغير أو من عري أو ضجر أو مرض أو مسكنة أو اضطهاد ما أو محبة أخرى كاذبة إذا كانت متيقظة .

فبمثل هذه المقدم ذكرها تنمو أكثر وتكلم ، وتنجح لدى الله دائماً ويتباهى جمالها فالموت نفسه لا يستطيع أن يشينها ، وإذا خرجت من الجسم تقبلها مبهجة الملائكة من السموات ويدخلونها إلى أبي الأنوار . المجد والجلالة للإله المتعطف وحده .

صلاة

أضرع إلى خيرينك أن تشفي كلوم نفسي وتضئ عيني ذهني لأتأمل تدبيرك فيّ ؛ وإذ قد تسفه ذهني فليطيبه ملح نعمتك ، ماذا أقول لك يا ذا العلم السابق ، والفاحص القلوب والكلى ؟ أنت وحدك تعلم أن نفسي كالأرض الفاقدة الماء ، قد عطشت إليك وتاق إليك قلبي لأن الذي يحبك حباً دائماً تشبعه نعمتك .

فكما سمعتني دائماً لا تعرض الآن عن وسيلتي فإن ذهني هو مثل أسير لك ، وإياك يطلب . أيها المخلص الحق أرسل إذا نعمتك لكي إذا جاءت تشبع جوعي ، وتروى عطشي إليك أشتاق وأعطش يا نور الحق ، وأتي بالخلاص أعطيني طلباتي وأقطر في قلبي نقطة واحدة من محبتك لتتقد كاللهيب في قلبي وتحرق أشواكه وقرطبه ، أي الأفكار الخبيثة التي فيه . بما انك إله أعن الإنسان الحقير بسماحة ودعة وكثرة إحسان ، لأنك أنت الصالح ابن الإله الصالح

وإن كنت أنا خالفت وأخالف لأنني ترابي وابن ترابي لكن يا من ملأت الجرار من بركتك أرو عطشي ، يا من أشبعت الخمسة آلاف من خمسة خبزات أشبع جوعي .

أيها العطوف الصالح ، يا من قبلت فلسي الأرملة ومدحتها أقبل طلبتي عبيدك ، وامنحني وسيلتي لأصير هيكلاً لنعمتك ، وتسكن فيّ وتكبح ذهني كبحاً كأنه بلجام لكي لا أضل فأخطئ إليك وأخرج من نورك ؛ بل أهلني أن أدعى وارثاً لملكك وأقدم غمراً موعبة خشوعاً واعترافاً بشفاعة كافة قديسيك ، اسمع ابتهالي يا من لم تزل مباركاً من الكل . آمين .

أطلب إليكم أن تستيقظوا في هذا الزمان القصير وتجاهدوا في هذه الساعة الحادية عشرة ؛ فإن المساء قد حان ومعطي الأجرة سيوافي بمجد ليقضي كل واحد نظير أعماله .

فأحذروا أن يتوانى أحدكم في تقويم الفضائل فيضيع منحة أجرة المخلص التي لا تحصى ؛ فإن العابد يضاهي حقلاً مزروع لفلاح وهو ينمو بالأمطار ويتخالف النداء ، وحامل ثمر السرور .

فإذا بلغ إلى أوان الثمر جعل الفلاح في اهتمام أكثر لنلا يفسده برد أو وحوش برية إلى أن يصل إلى حصاد الغلة فينقل الفلاح إلى المخزن ثمر أرضيه فرحاً مسروراً شاكراً للرب .

كذلك العابد ما دام في هذا الجسد ينبغي له أن يهتم من أجل الحياة الأبدية ، ويتعب في النسك إلى يومه الأخير لنلا يتوانى فيحاضر بلا فهم إلى أمر لا منفعة له فيه بل لكي إذا أكمل سعيه يحمل إلى السماء مثل الفلاح ثمرات أتعابه جاعلاً بذلك للملائكة فرحاً وسروراً .

فلا يضجَعنَّ أحدكم أو يدهش من التجارب ؛ بل فليعضد القوي الضعيف وليعز النشيط الصغير النفس ، ولينهض المستفيق المضبوط بالنوم ، وليعظ الثابت في ترتيبيه من لا ترتيب له ، ولينتهز الممسك من لا تحفظ له ولا ترتيب .

وهكذا بالمسيح المخلص يؤازر كلنا بعضنا بعضاً ؛ ونخزي العدو مصارعنا ، ونمجد إلهنا ، ونسر الملائكة القديسين ، وينتفع منفعة عظيمة الذين يبصروننا ويسمعون الأوصاف عنا . لأن عسكر الملائكة القديسين مثل جماعة العباد الذين ذهنهم شاخص إلى الله كل حين على حالة واحدة .

ومجاوبة الأخ قريبه بمحبة مثل العسل والشهد في الفم .
وكمحل الماء البارد للعطشان في وقت الحر محل كلام التعزية عند الأخ في أوان حزنه .
وكما أن إعطاء أحد يده للواقع لينهضه ؛ هكذا ينهض لفظ الوعظ وكلام الحق النفس والوانية والسائمة . الزرع الجيد وحسن النمو في أرض سمينة كالأفكار الصالحة في نفس العابد .
سد وثيق في بناء كطول الروح في قلبه أوان الترتيل ، غرارة ملح على رجل ضعيف كالنوم وهم العالم على العابد .

الأشواك وكثرة القرطب في زرع جيد كالأفكار الدنسة في نفسه ، من به داء السرطان ويداوى ولا ينال البرء كالحقد في نفس العابد ، الدودة التي تنخر الخشبة وتفنيها كالعداوة التي تبثلي قلبه .
السوس يقرض الثوب ويفسده والوقية تدنس نفسه ، المتكبر والمتعظم كشجرة مرتفعة وبهية ولا ثمر فيها ، الحسود المتنافس كثمر بهي من ظاهره ومتهرئ باطنه ، مجاوبته بغضب تزعج ذهن قريبه كما يكدر عيناً صافية من يطرح حجراً فيها .

من يقلع وينقل شجرة مثمرة يفسد ثمرها ويزيل ورقها كذلك من يترك موضعه وينتقل إلى مكان آخر ، بناء لا أساس له على صخرة كمن لا صبر له على الأحزان .
من يتكلم في أوان الترتيل مثل إنسان واقف أمام الملك وهو يخاطبه فيناديه نظيره في العبودية فيترك مخاطبة الملك العجيبة والشريفة ويفاوض نظيره في العبودية .

فلنفهم يا إختوتي أننا بين يدي من نحن ماثلون لأنه كما أن الملائكة واقفون برعب كثير يقضون التسبيح للباري ؛ هكذا يجب علينا نحن أن نقف بجهد في أوان الترتيل ، وأن لا تكون أجسامنا واقفه وذهننا يتخيل ويتصور أمور العالم ، فلنجمع أفكارنا ليكون لنا فخر عند إلهنا ونصطبر على تجارب عدونا لنشرف .

فخر العابد الصبر في الأحزان ، فخر العابد طول الأناة مع المحبة ، فخر العابد عدم القنية وتواضع الرأي ، والبساطة تشرف قدام الله والملائكة .

فخر العابد السكوت والسهر بتخشع ودموع ، فخر العابد أن يحب الله من كل قلبه وقريبه كما يحب نفسه ، فخر العابد مسك الأطعمة واللسان ، وإذا وافقت أقواله أفعاله يقيم في موضعه ولا ينتقل مثل صخرة تصدمها الرياح ، ومثل مسمار في أمواج البحر .

ويلي يا أحبائي فإني قد صرت مثل منفاخ كور الحداد الذي يمتلئ ويتفرغ ولا يستفيد من الرياح شيئاً لأنني سررت فضائل رعية المسيح ولا أعرف في ذاتي شيئاً منها المجد لعظمته وصلاحه .

يا إختوتي إن أقتنص أحدكم بالأفكار النجسة فلا يتوانى ويبدل ذاته لليأس بل فليكن قلبه أمام الله ولينتهد بعبرات وليقل : يارب أنهض وأصغ إلى حكمي يا إلهي وربّي انظر إلى طائلتي يارب دني كعدلك لأنني أنا صنعة يديك ؛ فلم أهملتني وأعرضت عني ؛ لم تصد بوجهك عني وتنتسى مذلتني لأن العدو قد أضطهد نفسي وأذل في الأرض حياتي وانغمست في حماة العمق وليس لي قيام فلتدركني نعمتك لنلا أهلك .

إن داومت هكذا تستغيث به ؛ للحين يرسل المحب الناس نعمته إلى قلبك ويعزيك من الحزن المؤلم والمتعب .

فلا نتوانى إذاً ولا نضعج إذ لنا سيد مثل هذا متحنن يتRAF علينا ما دمنا هنا ، ويخلصنا ويغفر آثامنا ، من لا يتعجب أنه بدموع ساعة قصيرة يخلص وأنه في هذه الساعة الحادية عشرة نفسها يغفر هفوات عددها ربوات ، وكذلك يشفي ربوات جراحاتنا .
وإذا شفى يعطي أيضاً أجره الدموع لأن هذا هو المألوف من نعمته أنها بعد أن تشفي تضاعف الأجرة ، فلنحرص أن نبرأ يا إخوتي هنا بتراف وترحم نعمته وهناك ليس كذلك .
هناك عدل وانتصار ومجازاة لكل المفعولات ، هناك إبراهيم المتحنن ظهر غير متحنن على الغني ولا رحوم ؛ والذي تضرع من أجل أهل سدوم لم يتضرع من أجل خاطئ واحد ليرحم .
فلا نربطن ذهننا بالأمور الأرضية لكن فلنحرص أن نصير نظير الآباء القديسين ، ولا نخل منا سيرتهم لئلا نعدم شرفهم ؛ فلنحرص أن نكلل مع التامين فإن لم نبلغ أن يكون حظنا مع التامين فعلى الأقل أن نمدح مع الآخرين .
الطوبى لمن يجاهد أن يكلل مع التامين وشقي من لا يمدح مع الآخرين ، مغبوط من يؤهل للإكليل ولميراث القديسين وللصوت القائل :

" تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم من قبل إنشاء العالم " .
يا إخوتي أي اعتذار لنا إن توأنا الرجل العالمي ربما له عذر بأنه مرتبط بالعالم ، فنحن ماذا نقول ؟

فأخشى أن يكون الذين يمدحوننا هنا يستهزئون بنا هناك . لا يحل لنا الرقاد واهتمام العالم لئلا تمررنا النار الخالدة والدود الذي لا يرقد .
فلنفيق قليلاً ونبكي لننجوا من النار الأبدية ، ألا تصدقوا قول المخلص أن وروده يكون كالبرق بعتة ؛ فلنهرب من أن يدركنا بعتة ونحن غير مستعدين فتندم نفوسنا على ونيتنا ولا ينفعنا ذلك شيئاً .
صدقوني يا إخوتي إن الساعة الأخيرة هي ؛ احذروا أن يتم فينا قول النبي : ويل للذين يشتاقون إلى يوم الرب . وأصغوا إلى ذواتكم حذرين أن توجد مثل ذلك العبد الذي جاء مولاه فوجده متنعماً فجعل حظه مع الكافرين وشطره نصفين ، بل فلنطلب بوقاحة ولجاجة لينقظنا من الظلمة وصرير الأسنان ويؤهلنا لملكه .
صلاة :

إليك أتضرع أيها المسيح مخلص العالم أنظر إليّ وارحمني ، ونجيني من كثرة مآثمي فإنني قد أنكرت سائر الصالحات التي صنعتها معي منذ حدثتي لأنني كنت أمياً وللفهم عادماً فجعلتني مملوءاً علماً وحكمة .

وتكاثرت عليّ نعمتك فأشبع جوعي وبردت عطشي وأضأت ذهني المظلم وجمعت من الضلال أفكارني . فالآن أسجد وأتضرع إلى تعطفك الذي لا يوصف معترفاً بضعفي .
سكن عني أمواج نعمتك وأحفظها لي في ذلك اليوم ولا تسخط عليّ أيها الكلي الصلاح لأنني لا أحتمل فيضائها ، قد اجترأت على التهجم بهداية صورة الأب وشعاع المجد الذي لا يوصف ارحمني منها فإنها كالنار تلهب كليتي وقلبي ؛ أعطيني إياها هناك وحصلني في ملكك .

إذا صنعة عندي منزلاً بظهورك مع أب صلاحك المبارك نعم أيها السيد الآتي بالحياة وحدك أعطيني طلبتي وأحجب مآثمي عن معارفي ذاكراً عبراتي التي ذرفت قدام شهادتك القديسين لتتراف عليّ في تلك الساعة الرهيبة واسترني تحت أجنحة نعمتك .

نعم أيها السيد أوضح فيّ أنا الخاطئ تعطفك الذي لا ينطق به واجعلني لذلك اللص مشاركاً ؛ الذي صار بكلمة واحدة وارثاً للفردوس ؛ وأدخلني إلى هناك حتى أبصر أين اختفى آدم وأقرب لتعطفك مجدداً لأنك استمعت لعبراتي وغفرت كافة آثامي .

ضع عبراتي قدامك يارب كوعدك ليخز عدوي إذا رأني في صقع الحياة الذي أعدته لي رافاتك ويظلم خائباً إذا رأني في الصقع الذي هيأته لي رافاتك من أجل تحننك .

نعم يا سيدي غير الخاطيء وحدك والمتعطف أسكب عليّ صلاحك الذي لا يوصف ، أعطيني
ولكافة الذين يحبونك أن نسجد لمجدك في ملكك ، وإذا تتعمنا بجمالك نقول :

المجد للآب الذي خلقنا ، والمجد للابن الذي خلصنا
والمجد للروح الكلي قدسه الذي جددنا
إلى كافة أبد الدهور
أمين